الوراثة الحضارية.. شروط ومقومات

الشيخ الأستاذ عمر عبيد حسنة

نشر في كتاب

الدور الحضاري للأمة المسلمة في عالم الغد

(سلسلة مشروعات ثقافية)

مركز البحوث والدراسات

وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الدوحة، الطبعة الأولى

1421 هـ /2000م

الوراثة الحضارية.. شروط ومقومات

عمر عبيد حسنه(*)

المنهج الذى نراه في النظر إلى مسألة الوراثة الحضارية يقتضى التعرف على الذات بمؤهلاتها والتعرف على (الآخر) بما يملك من أدوات السبق والغلبة, وتحديد موقع الأمة من مسيرة الحضارة والمدخل الذى يمكن أن تلج منه.

التعامل مع مسألة الوراثة الحضارية، والنظر في تجلياتها على أكثر من موقع، ليس من الأمور البسيطة، أو السهلة التناول، على الرغم من الفضاء الحضاري الكبير، الذي قد يتيح أقدارا من الحركة والنظر، حيث إن الباحث هو جزء فاعل ومنفعل بهذا الفضاء الواسع، ذلك أن حركة الحضارة وتجلياتها المتنوعة تخضع لسنن ونواميس في الأنفس والآفاق، وتتداخل فيها عناصر متعددة، وتتدافع فيها أقدار، ويتشابك فيها الزمن بأبعاده الثلاثة: الماضي، والحاضر، والمستقبل. الماضي الذي يشكل جذور الحضارة الممتدة في العمق، والحاضر الذي يشكل مستقبل الماضي، بكل ما انتهى إليه هذا الماضي، كما أنه يشكل في الوقت نفسه ماضي المستقبل، الذي يشكل آفاقه ومؤشراته واستشرافاته وتحولاته، وتخطيطاته.

(*) مدير مركز البحوث والدراسات.. وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية سابقا (قطر).

لذلك نقول بأن: أي استشراف للمستقبل وتتبع لمسيرة الحضارة ومآلاتها لا بد له من استشراف الماضي، والإحاطة بدراسة الحاضر ومعرفة تأويله لاكتشاف كنه الحضارة وقوانين الحركة وعوامل التأثير في هذه المسيرة.

وذلك يقتضي التوفر على مجموعة تخصصات وخبرات وأدوات بحثية متوازية مع مركب المسألة الحضارية، إضافة إلى امتلاك الرؤية الثقافية أو الفلسفية أو العقدية عن الكون والإنسان والحياة، وعدم الاقتصار في ذلك على عالم الشهادة، بحيث تكون تلك الرؤية قادرة على الإجابة بشكل شاف عن عالم الغيب الذي هو في الحقيقة مصير الإنسان النهائي، أو مستقبل المستقبل، أو المحطة الأخيرة لمسيرة البشرية، لأن الحضارة هي في الحقيقة المصب النهائي أو الثمرة والمحصلة النهائية لهذه الأمور مجتمعة، لذلك فهي أبعد ما تكون في تحقيقها وإنجازها عن مجال الرغبات والأمنيات والشعارات بكل ما تورثه من الحماس والتوثب والانفعال – وإن كان الحماس مطلوبا كحافز – كما أنها أبعد ما تكون عن المصادفة والعبث والانفلات من قوانين الحركة الاجتماعية وسننها.

لذلك أكدت الرؤية الإسلامية، أو معرفة الوحي بتعبير أدق، منذ الخطوات الأولى لمسيرة الحضارة الإسلامية أهمية التعامل مع السنن الجارية بعيدا عن اعتماد العبث والمصادفة والسنن الخارقة في عملية البناء الحضاري، والوراثة الحضارية على حد سواء، وأن ذلك يخضع لسنن وقوانين ثابتة ومطردة لا تحابي أحدا، منوطة بعزمات البشر، كما أنها تخضع لموازين العدل والأمن التي تحقق لها الحماية والامتداد، على الزمن، قال تعالى: ﴿ لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ ﴾ (النساء: 123)، موازين عادلة.. وقال: ﴿ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ ﴾ (البقرة:78)، إحساس

وحماس بدون إدراك وتبصر، وتلاوة بدون تدبر وعمل. وقال تعالى: ﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾ (الأحزاب:62).

ومالم تدرك هذه السنن الجارية المطردة الثابتة التي تقع ضمن عزمات البشر، وتشكل في حقيقتها أبعاد التكليف الإلهي لحمل أمانة الاستخلاف والقيام بأمر العمران، وتستبعد السنة الخارقة التي لا يملكها إلا الله، والتي تؤكد من وجه آخر على مدى الاطراد في السنن الجارية، حيث لا يستطيع خرقها إلاّ الذي خلقها، فسوف يستمر المسلمون في غرفة الانتظار، خارج الحاضر والماضي والمستقبل. وما لم يدركوا ذلك فهم يكرسون التخلف، ويعانون العجز والتخاذل، ويهربون إلى ماضيهم يفاخرون به للتخلص من مركب النقص وحالة العجز، وقد يلجأون لتسويغ واقعهم بتقطيع الرؤية الإسلامية والانتقاء من معرفة الوحي ما يكسبهم الاطمئنان الخادع الناشئ عن أقدار من التدين المغشوش، البعيد عن إدراك حقيقة الدين ومقاصده ودوره في بناء الحضارة وهدفه في إلحاق الرحمة بالعالمين، وهو الغاية التي من أجلها كانت البعثة والنبوة.

والأمر الذي لا بد من الاعتراف به والتأكيد عليه هنا، أن مسألة الوراثة الحضارية لا يمكن أن تتحقق إلا بإدراك سيرورة الحضارة المعاصرة ومعرفة عللها، وبعبارة أدق: عواقبها، والتعرف على قوانين الحركة التاريخية والاجتماعية، وامتلاك القدرة على مدافعة سنة بسنة أو قدر بقدر، والتمكن من عملية التسخير لهذه السنن، والقيام بالتغيير والتحويل لوجهة الحضارة، ولحماية مسيرتها وتحقيق مقاصدها المأمولة، وذلك أكبر من أن يعالج بمقال أو كتاب أو يقتصر على جهد باحث في زمن

معين أو مكان معين، نظرا لطبيعتها المركبة، وتداخل عواملها المتعددة، وتطور معارفها المتنوعة، وما يقتضيه ذلك من توفر الاختصاصات المتعددة، والأدوات البحثية المناسبة، والرؤية الثقافية التي تؤطرها وتحدد منطلقاتها وتبين مقاصدها، كما أسلفنا.

فمجرد التقريرات من أن الحضارة، نشوءا وسقوطا، تحكمها قوانين وسنن، دون التمكن من التخصصات التي تحيط بهذه السنن وفاعليتها وعوارضها، وتوفر الإرادة والقدرة على مدافعتها بسنن أخرى، وقراءة أمراض الحضارة ومعرفة أسبابها ونتائجها وكيفية معالجتها، لا تخرج عن كونها شعارات وأمنيات وومضات حماس لا تغير من الواقع شيئا، بل لعلها تزيد من حالة الاستنقاع الحضاري، وتوبّخ أصحابها، لأنها تقضي على الهاجس، أو ما يسمى بالقلق الحضاري، الذي يشكل المهماز والمحرض لكل إنجاز ووراثة حضارية.

لذلك نؤكد أن محاولتنا في تقديم بعض الملحوظات وإبصار بعض الملامح، لا تخرج عن فتح هذا الملف الكبير، واستدعائه للنظر والاهتمام والمساهمة في إدراك أبعاده وآثاره على الحاضر والمستقبل، وإثارة بعض الجوانب، لعلها تقوم بدور ما يسمى بالوسيط الكيميائي الذي يحدث التفاعل المطلوب ويحرض وظائف العناصر المعطلة، ويحقق النتائج المرجوة، وبذلك نساهم في تحقيق النقلة المطلوبة في الوعي الإسلامي، الذي إذا ما تحقق فسوف يحرك الطاقات، ويعيد الفاعلية المنطفئة، لتستأنف الأمة المسلمة دورها الغائب من جديد في الشهود الحضاري، والإسهام في العطاء الحضاري العالمي، قال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ (البقرة:143).

منهج النظر:

والمنهج الذي نراه للنظر في هذه القضية يقتضي:

أولا: التعرف على الذات تماما ، بكل أبعادها، بما يمكن أن نصطلح عليه: «الإمكان الحضاري» الذي يؤهل الأمة المسلمة للقيام بالدور المطلوب لإلحاق الرحمة بالعالمين. وسوف نحاول ما أمكن تجاوز المنهج الوصفي أو التقريري للإمكان الحضاري إلى تقديم رؤية في كيفية تفعيل هذا الإمكان ليقوم بالدور المطلوب.

ثانيا: ومن ثم التعرف على (الآخر) بكل إنجازاته الحضارية، وإشكالاته أو إصاباته كشريك حضاري يمتلك أدوات السبق والغلبة والحضور في كل المواقع، وهذا يقتضي تأسيس منهج لفهم الحضارة الأوروبية المعاصرة، بأبعادها الفلسفية وتاريخها الثقافي ومنظومتها المعرفية وإنتاجها المادي الذي جاء ثمرة لذلك كله.

ذلك أن هذه الحضارة تشكل حضورا في كل المواقع، ونكاد نقول: في كل بيت، تفرض أنماطها الاجتماعية والسياسية والإعلامية والمعرفية، وتغرق الأسواق بإنتاجها المادي، وترهن الناس بسبقها الحضاري، وتحاول من خلال دعوتها إلى العولمة احتياز العالم بخبراته وطاقاته وثقافاته، الأمر الذي يجعل التداول الحضاري والدوران الحضاري يتم داخل دائرة الحضارة نفسها، ويدور على محورها وفي فلكها.

ثالثا: ومن ثم تحديد موقع الأمة المسلمة من مسيرة هذه الحضارة، والدور الذي يمكن أن تساهم به لإعادتها إلى الجادة ونشر رسالتها وربط الإنجازات العلمية والتقنية بأهدافها، وتخليصها من حالة العلم المدمر، أو العلم الذي لا ينفع، الذي استعاذ منه

الرسول ﷺ، والذي يقتصر على أشياء الإنسان ويمثل وسيلة الإنجاز المادي لكنه في الوقت نفسه يؤدي إلى العاقبة السيئة (الوأد الحضاري).

نعود إلى القول: بأن الوراثة الحضارية ليست أماني وأحلام يقظة، ومكوث في غرفة الانتظار، وعدول عن السنن الجارية في الحياة والأحياء إلى السنن الخارقة، وترك ما نملك والتطاول إلى ما لا نملك، والتطلع إلى المنقذ الذي يهبط من السماء ليملأ الأرض عدلا بعد أن ملئت جورا وظلما، ولو كان ذلك كذلك لكانت الحياة ضروبا من الفوضى والاختلال والظلم والانحلال الحضاري وانعدام المسؤولية وعبثية التكليف وانطفاء روح المنافسة والإبداع والإنجاز وموت الفاعلية، حيث يستوي الماء والخشب، والأحياء والأموات، والعلماء والجهلاء.

فالحضارة أمانة استخلاف، وعزمة بناء، وتراكم معرفي، واكتشاف للسنن الفاعلة في الأنفس والآفاق، وممارسة لعملية التسخير، وامتلاك للشروط والمقومات للقيام بأعباء الاستخلاف والعمران، التي تشكل المحور الأساس للتكليف الإلهي للإنسان والمجال الحقيقي للمسئولية عن العمل.

من مرتكزات الإمكان الحضاري

لذلك فالوراثة الحضارية تقتضي توافر مجموعة شروط ومقومات، أو بعبارة أدق مؤهلات اصطلحنا على تسميتها «بالإمكان الحضاري»، الذي يشكل الأدوات الحضارية التي تمكن الإنسان – وهو محور الحضارة وهدفها ووسيلتها في الوقت نفسه – أن يُعْمِلَها في محيطه، فيتحقق الإنجاز الحضاري.

– امتلاك النص السماوي السليم:

وقد يكون في مقدمة الأدوات والمقومات الحضارية، أو الإمكان الحضاري

الذي تمتلكه الأمة المسلمة وتتفرد به، وتفتقده الأمم والحضارات الأخرى، السائد منها والبائد، هو النص السماوي السليم الخاتم الخالد، والبيان النبوي المعصوم، الذي استوعب رصيد النبوة التاريخي وأصَّل لسنن سقوط الأمم ونهوضها، أو قوانين الحركة التاريخية والاجتماعية، واعتبر ذلك منهجا خالدا جاريا على الأمم جميعا دون محاباة، نافذا في كل زمان ومكان، واستحضر تاريخ الأمم السابقة كمختبر عملي ودليل على صدق السنن التي شرعها الله وبيان اطرادها، بل اعتبر السير في الأرض والتوغل في التاريخ مصدرا للمعرفة السننية التي تمكن الإنسان من رؤية المستقبل في ضوء هذا الاطراد، والتحقق بمزيد من الكشف لآيات الله وسننه في الأنفس والآفاق، حتى يتأكد الإنسان من أحقية هذه السنن التي هي أشبه ما تكون بالمعادلات الرياضية الصارمة، حتى تقود الإنسان المسلم المؤمن بها إلى اليقين، وتمكنه من ممارسة الحضارة وتجنّب علل الأمم السابقة وأسباب سقوطها، قال تعالى: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾ (فصلت: 53)، وقال: ﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾ هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ (آل عمران:137-138) التوجه صوب التاريخ الإنساني وعدم الاكتفاء بالتجربة الذاتية حتى ولو حرسها الوحي، والتوجه صوب المستقبل في رحلة كشف وتسخير تمتلك الأدوات البحثية والقوانين السننية للنظر والوصول إلى اليقين والبرهان على صدق هذه السنن.

ولا شك أن امتلاك النص السماوي السليم الخالد، المجرد عن قيود الزمان والمكان، القادر على الإنتاج في كل زمان ومكان، المتواتر (المنقول بطريقة علمية تفيد

اليقين)، يعتبر من أهم مرتكزات الإمكان الحضاري للأمة المسلمة. النص الذي ما يزال قادرا على الإنتاج.. ولا يتسع المجال هنا للحديث عن الإقبال على الوحي الإلهي والإيمان به، الذي يكاد يكون يوميا في أكثر بلاد الحضارة تقدما، وأشدها تخلفا، في وقت معا، الأمر الذي يشير إلى تجرده عن قيود الزمان والمكان الحضاري، إضافة إلى أن رحلة العلم الكبيرة والمذهلة والمتقدمة جدا لم تستطع أن تلحق أو تسجل إصابة واحدة على هذا النص الخالد، الأمر الذي يشهد له بالصحة والخلود، وتأكيد ما ورد بتعهد الله بحفظه، قال تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ (الحجر:9).

هذا النص الذي تحقق له النقل المنهجي مشافهة وكتابة، ورواه الجمع عن الجمع، الذي يحيل العقل تواطؤهم على الكذب، يعتبر من وجهة علمية وثائقية ومنهجية وتاريخية أقدم وثيقة تاريخية وردت بطريق علمي، في الوقت الذي تعوز النصوص الأخرى، دينية كانت أو غير دينية، هذه الوثائقية، الأمر الذي دعا الكثير من علماء الأديان المقارنة والتاريخ إلى اعتباره الوثيقة الوحيدة للتعرف على تعاليم الأديان وشرائعها وأقوامها، بطبيعة كونه وثيقة منهجية وليس بسبب الإيمان به، وهذا يشير إلى إحدى خصائص القرآن المعيارية في الاعتراف بالكتب السابقة والهيمنة عليها.

وقد تكون المشكلة الحضارية أو المأزق والمعوق الحضاري اليوم، في كيفية تعامل المسلمين مع هذا النص الخالد الذي أُنزل لإحداث تغيير، وبناء حضارة، وأداء رسالة، وإلحاق رحمة بالعالمين، وكيفية تنزيله على واقع الناس وتقويم سلوكهم به، وتحقيق مقاصده وأهدافه في الحياة، حيث أُنزل ليُتدبر ويُعمل به، فجعل الناس من تلاوته وطباعته وتسجيلاته عملا، ذلك أن التلاوة والطباعة والتسجيل والتوثيق والنقل الصحيح لا تخرج في النهاية عن أن تكون

وسائل، فلا يجوز أن تنقلب أهدافا. فإذا لم تُعْمَل في تحقيق الأهداف والمقاصد، تفتقد قيمتها كوسائل أيضا، لذلك نرى ازدياد من يحملون القرآن من الحفظة، وشيوع الطباعة، وانتشار الكاسيت، في الوقت الذي نرى فيه تراجع العمل وفشو الأمية العقلية والتخلف الحضاري.

لذلك حتى تفيد الأمة المسلمة من هذا الإمكان الحضاري الأساس، لا بد لها من المراجعة وإعادة النظر وتغيير منهج التعامل، لأن ما نحن عليه من التخلف والركود هو دليل فساد منهج التعامل.

– خلود النص:

ولعل من الإمكان الحضاري الذي تتميز به الأمة المسلمة، والذي يمنحها القدرة على التجدد والتجديد ومتابعة الإسهام والعطاء العالمي: خلود النص الذي يدفع الأمة باستمرار إلى الاجتهاد وإعمال العقل في استشراف المستقبل، ووضع الأوعية والتخطيط لحركة الأمة ضمن أطر القيم الشرعية التي أسستها معرفة الوحي، والاجتهاد في إيجاد الحلول للمشكلات والأزمات الطارئة، وجعل التفكير فريضة إسلامية، والاجتهاد في تنزيل القيم على الواقع دينا ومصدر تشريع، كما جعل التجدد والتجديد أحد التكاليف الشرعية الكبرى، وأن هذا التجديد من طبيعة هذا الدين ولوازم خلوده لنفي نوابت السوء، والعودة إلى الينابيع الأولى، وتقويم مسيرة الأمة بقيم الدين، والحيلولة دون اختلاط التعاليم الشرعية بالتقاليد الاجتماعية وتحويل القدسية من النص الإلهي لاجتهادات البشر.

والتجدد والتجديد والاجتهاد حركة مستمرة للنقد والتقويم والتصويب

وتوسيع دائرة الرأي وبعث الحيوية المستمرة، وهو مسؤولية الفرد والجماعة والأمة، وهو تكليف شرعي استجابة لقول الرسول ﷺ: «**إِنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ لِهَذِهِ الأُمَّةِ عَلَى رَأْسِ كُلِّ مِائَةِ سَنَةٍ مَنْ يُجَدِّدُ لَهَا دِينَهَا**»(أخرجه أبو داود في الملاحم).

ولعل هذا هو الذي ضمن سلامة الرؤية والاحتفاظ بالإمكان الحضاري، على الرغم من فترات الركود والجمود وسيادة التقليد الجماعي، ذلك الركود الذي يدعو الإنسان إلى تقديس التقاليد، والعجز عن الالتزام بالتعاليم، والتحول من الأفكار إلى الأشياء.

– عقيدة التوحيد:

ومن أبرز ثمرات النص السماوي السليم وعطائه الخالد: عقيدة التوحيد، التي تشكل أهم مقومات الإمكان الحضاري الذي تمتلكه وتتميز به الأمة المسلمة، التي ترتكز إلى الفطرة، وتحرر ضمير الفرد من المخاوف والهواجس، وتخلص نفسه من اليأس والقنوط والإحباط، كما تحرر عقله من الخرافات والأوهام والإيمان بالمصادفة والبروج والخوارق، وتعتقه من تأله البشر، وتَنسخ الطواغيت، وتحقق المساواة بين الخلق، وتوقف تسلط الإنسان على الإنسان، وتخلصه من جميع أنواع العبوديات والكهانات الدينية، وتأمنه من الخوف على حياته ورزقه، وتمنحه الثقة والتحمل، لأنه يرتكز إلى القوة المطلقة القادرة على كل شيء، أو تمنحه الإرادة، وتبعث فيه الفاعلية.

لكن المشكلة في الغواش التي لحقت بعقيدة التوحيد فتحولت وأُخضعت في مناهج تدريسها وبحثها إلى لون من الفلسفة بمعارفها وأدواتها البحثية الجدلية وطروحاتها النظرية وعواطفها الباردة وقطيعتها مع العمل والسلوك

وإخراجها من دائرة الأخلاق، التي تميزها أو تميز النبوة عن الفلسفة، كما غشيتها غواش الإرجاء والجبرية.

– الأنموذج التطبيقي للنص السماوي:

والأمر المميز للإمكان الحضاري الذي تتوفر عليه الأمة المسلمة، والذي يؤهلها للقيام بدور حضاري مأمون في الحضارة المعاصرة، هو ما تمتلكه من الأنموذج التطبيقي المعصوم للنص السماوي في واقع الناس، وتحويل الفكر إلى فعل، وتجسيد القيم في حياة الناس والامتداد بها من خلال عزمات البشر، وشمولية هذا الأنموذج لمساحات الحياة جميعا، نصرا وهزيمة، قوة وتمكينا، ضعفا وانكسارا، دعوة وبلاغا، دولة وحكما، حربا وسلما، عبادات ومعاملات، علاقات اجتماعية ومسالك فردية، حراما وحلالا، اتفاقا واختلافا، وحيا وعقلا.

هذا الأنموذج التطبيقي، أو هذه التجربة العملية لتطبيق القيم في واقع الناس، الذي تم في حياة الرسول ﷺ، وبحراسة الوحي في التسديد والتأييد، والامتداد به في القرون المشهود لها بالخيرية من الرسول ﷺ بعد توقف الوحي، والذي هو من حيث دقته وصوابيته أشبه ما يكون بالتجربة المعملية في العلوم التجريبية، يمكن أن يشكل مرجعية وأنموذجاً للتطبيق، يحمي المسيرة من الضلال والانفلات والفهوم المنكوسة، أو يشكل، عندما يُستصحب، هداية للأجيال.

لكن المشكلة، كل المشكلة، عندما يتحول هذا الأنموذج من وسيلة إيضاح معينة على تنزيل القيم على الواقع، وتقديم رؤية عن حلول وأوعية لحركة الحاضر، إلى معوق يحبس الناس أنفسهم من خلاله، أو يعجزون عن تجريده عن قيود

الزمان والمكان، وتوليده في الواقع المتجدد، وبذلك يعجزون عن تحديد الموقع المناسب من هذا الأنموذج، ليشكل لهم اقتداءً واقتباسا لحالتهم الواقعية، أو بمعنى آخر امتلاك القدرة على وضع الحياة المعاصرة بظروفها وإمكاناتها بالموقع الصحيح من مسيرة الأنموذج، والاستضاءة والاقتداء بهذا الموقع في هذه المرحلة، مع الإبصار الكامل لكل أبعاد الأنموذج ومراحله. أما أن تمارس عملية التدين بشكل من الاقتداء الأعشى، بحيث ونحن نعاني الهزيمة نقتدي بمرحلة النصر، ونحن نمارس الدعوة نقتدي بخطاب وتعامل المعركة، ونحن لا نأمن الفتنة عن أنفسنا، نتطاول للقتال حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله، فيتحول بذلك قتالنا لتكون فتنة، وتلك هي الإصابة الكبرى.

وقد تكون المشكلة الأساس إدراك مواصفات خطاب الوحي في الكتاب والسنة، والإحاطة الكاملة بمحل التنزيل، فإذا لم يتوفر المحل لا يتحقق التكليف ولا تنزل الأحكام، فلا يكلف الله نفسا إلاّ وسعها.

– وراثة التجربة التاريخية للنبوة:

ومن الإمكان الحضاري الذي تتوفر عليه الأمة: اعتبار الرسالة الإسلامية حلقة في السلسلة الحضارية لرسالات السماء، ولبنة في البناء الحضاري لمسيرة النبوة، اعتبرت الأمة المؤمنة بالنبوة تاريخيا أمة واحدة ممتدة الجذور منذ بدء الخلق وحتى ينشئ الله النشأة الآخرة، قال تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴾ (الأنبياء:92)، وبذلك كانت الرسالة الإسلامية هي اللبنة الأخيرة التي حققت الكمال والاكتمال، وأضافت إلى رصيدها التجربة التاريخية للنبوة وتحولات الحركة الاجتماعية والتاريخية بدون قطيعة أو انغلاق على الذات.

فالأمة المسلمة وريثة الأمم، والرسالة الإسلامية وريثة النبوة. وهذا العمق

الحضاري لا شك أنه يؤهل الأمة، لو كانت في مستوى إسلامها، أن تقدم إسهاما حضاريا متميزا، مستوعبا للموروث جميعه، محيطا بالواقع بكل أبعاده ومساحاته، قادرا على إلحاق الرحمة بالعالمين، وهي الغاية التي من أجلها كانت الرسالة.

– التجربة التاريخية الحضارية الإنسانية:

ومن الإمكان الحضاري الذي تتوفر عليه الأمة، والذي يمكنها من العطاء الحضاري: ما تمتلكه من التجربة التاريخية الحضارية الإنسانية الغنية، التي ساهمت فيها جميع الأجناس والألوان والأقوام، فجاءت مشتركا إنسانيا تأبىَّ على العنصرية واللونية والجنسية والقومية والتعصب، وخضعت للنصر والهزيمة، والنهوض والسقوط، فجاءت تجربة تضاريسها غنية بكل النماذج البشرية وبكل التجارب والمواقع الحضارية، إضافة إلى القيم المعيارية المتأتية من معرفة الوحي، التي تحدد الانحراف والاستقامة، والقصور والتقصير، وتمتاز هذه القيم بأنها خارجة عن وضع الإنسان ومسوغاته وانحيازه لإنتاجه، الأمر الذي يجعل من هذا المخزون الضخم رديفا ودليلا حضاريا لتقويم مسيرة الحاضر وإبصار المستقبل.

– إنسانية الخطاب وعالمية الدعوة:

ومن الإمكان الحضاري الذي تتوفر عليه الأمة ويؤهلها للقيام بالدور الحضاري المعاصر: إنسانية الخطاب وعالمية الدعوة، وتمحور الخطاب بكل نماذجه وأبعاده حول إعادة بناء الإنسان، محور الحضارة ومعيارها، والارتكاز في ذلك إلى رصيد الفطرة التي فطر الله الناس عليها، فكان بين الوحي المنزل من عند

الله، وبين الإنسان المخلوق من الله، تواعد والتقاء، ذلك أن الذي خلق أعلم بمن خلق، فلا يمكن أن يأتي تشريعه وتعاليمه متجاهلا لحاجة أصلية أو مصطدمة بكينونة الإنسان نفسه، وأن يأتي التكليف متجاوزا طاقة الإنسان واستطاعاته.

يضاف إلى ذلك أن أعظم مرتكزات الإمكان الحضاري في هذا الملمح، أن الإسلام منح الإنسان حرية التدين والاختيار، وترتب على ذلك أن جعل ميزان الكرامة والتميز كسبيا من صنع الإنسان «التقوى والعمل الصالح»، ولم يجعله قسريا فيعتمد الفوارق البشرية التي لا يد للإنسان في إيجادها أو نفيها كاللون والجنس والقوم والذكورة أو الأنوثة، و بذلك أصبح باب الإنجاز والبناء الحضاري مفتوحا للجميع، وميدان السباق والتنافس على فعل الخير، الذي يعتبر المهماز الحضاري هو سبيل الارتقاء والتميز، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ﴾ (الحجرات:13)، وبذلك ألغى الفوارق والحواجز والحدود، ودعا الإنسان أينما كان، فكان خطابه عالميا منذ اللحظة الأولى لحركة الدعوة، في الوقت الذي لم تقم بعدُ دولة المدينة أو الجزيرة أو المناطق المحيطة جغرافيا بجزيرة العرب، وجاء ذلك الإنجاز الحضاري الإسلامي مشتركا عالميا يمثل إنسانية الحضارة الإسلامية، وجعل الأجناس والأقوام والبلدان عوامل عطاء حضاري، ووسائل تكامل وتعاون، فبدَّل الحوار والتعاون بالصراع والاقتتال.

– الوحي مصدر القيم والمبادئ.. والعقل أداة البرامج:

ومن الإمكان الحضاري، أن معرفة الوحي تضمنت قيما هادية ومبادئ عامة ورسمت السياسات والمسارات الكبرى، وضبطت المسيرة بنسب متوازنة وقيم أخلاقية ثابتة، وتركت أمر وضع البرامج ورسم الخطط والتنزيل على الواقع

بحسب قضاياه ومشكلاته واستطاعاته من مهام العقل ووظائفه، وفي ذلك طلاقة للعقل، وحرية لحركته، واعتماد له في الاجتهاد ودراسة الواقع محل تنزيل النص وتقدير الاستطاعات المتاحة في ضوء الظروف المحيطة للنهوض بالمجتمع والارتقاء به من مرحلة إلى أخرى.. فليست القيم الإسلامية قوالب حديدية تصب فيها العقول وتحاصر لتفتقد وظيفتها في التفكير والكشف التي خلقت من أجلها.. فالحضارة كسب وإنتاج بشري ضمن إطار معرفة الوحي، التي تبين المنطلق، وتحدد الهدف، وتضع الإشارات الهادية على الطريق، لتحمي الإنسان من السقوط.

لذلك تمتعت الأمة المسلمة بنوع من المناعة والممانعة الحضارية من الذوبان والسقوط، ونهضت من كبوتها أكثر من مرة، وفي أكثر من موقع، واحتفظت بالإمكان الحضاري ليعاود دوره كلما وفرت الشروط والظروف، ودليلها إلى ذلك كيفية توفير شروط وظروف ميلاد مجتمعها الأنموذج، المجتمع الأول، لأن نهوض أي مجتمع مرهون بتوفير ظروف وشروط ميلاده الأول، ولا يصلح أمر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها، كما يقول إمام دار الهجرة، رحمه الله.

– الطاقة الروحية المتجددة:

ومن الإمكان الحضاري الذي تمتلكه الأمة المسلمة، والذي يؤهلها للقيام بدور متميز ورائد لإلحاق الرحمة بالعالمين: الطاقة الروحية المتجددة المختزنة في الإيمان بالإسلام، التي تغذيها التعاليم والعبادات الإسلامية والإقبال المتزايد على الإسلام، على الرغم من كل ظروف المسلمين، من مواقع حضارية شتى، ومستويات ثقافية وعلمية متعددة.

فهذا الضخ الروحي والثقافي والمعرفي للقرآن الكريم وبيانه النبوي نبع لا ينضب، حيث لا تتم عبادة المسلم إلا بتلاوته سرا وجهرا وسماعا وتأملا وتدبرا، في يوم المسلم وليلته، إضافة لتحقيق الولادة الجديدة للأمة في كل عام، حيث يسعى المسلمون من شتى البقاع إلى أرض النبوة للعيش ولو لأيام على أرض ولادة المجتمع الأول، الذي حمل الحضارة للعالمين، وحقق المساواة والتكافل مع (الآخر)، وألغى فوارق وحواجز الزمان والمكان، وما يصاحب ذلك ويسانده من توجهات للمسلمين من مواقعهم إلى البيت الحرام، محور حركة الحجيج، في اليوم خمس مرات، يستلهون من خلال هذا التوجه كل معاني الخير، ويجددون العزيمة على متابعة الطريق، إضافة إلى الدخول في دورة روحية متجددة في صيام رمضان، الذي يعكف فيه الناس على الذات لإعادة صقلها بالقرآن والارتقاء بها عن الغرائز والشهوات...

إن هذه الطاقة الروحية المتجددة والمستمرة العطاء والصقل، إلى جانب العبادات الأخرى، تصوغ الفرد المسلم صياغة أخرى ليبقى فاعلا معطاءً مؤثرا لغيره، متحملا لكل المصاعب، متأبيا عن القلق والإحباط والسقوط والانكسار، حمالا للحب والخير للآخرين، مسؤولا عن ذلك أمام الله، مستذكرا ذلك في عبادته، رابطا نجاته بتنجية (الآخر)، قال ﷺ: «**لا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ**» (أخرجه البخاري).

إن هذه الطاقة الروحية المتأتية من طبيعة الإيمان، الذي تغذيه العبادة، ويستجيب له السلوك، هي التي تشحذ الهمم وتمنحها الصبر والاحتمال والاحتساب، وتجدد الشباب الحضاري للأمة المسلمة.

– امتلاك الطاقة المادية المطلوبة لنمو الحضارة:

ومن الإمكان الحضاري أيضا، أن معظم أنواع الطاقة المادية المتعددة، التي

تقوم عليها الحضارة وتأمن لها نموها وحركتها، مركوزة في بلاد الأمة المسلمة، من خامات، ومعادن، ونفط، ومساحات زراعية، وتنوع مناخات، وصحارى، وجبال، وأنهار، وبحار، وثروات حيوانية، وأيد عاملة، الأمر الذي يؤدي إلى نوع من التكامل الذي يمكّن الأمة من القيام بالدور الحضاري المأمول.

ولئن كانت الأمة في بعض اللحظات التاريخية عاجزة، تنتابها حالة حياة الكَلِّ الذي يعيش عالة على مولاه أينما يرسله لا يأتي بخير، وتفتقد حياة العَدْلِ الفاعلِ البصير المنتج، التي تجعل منها منجما فقط ومصدرا للمواد الأولية لتغذية مصانع الحضارة العالمية الغالبة، وسوقا لاستهلاك منتجاتها بلا وعي، فلا يمنع ذلك من أن تَوفُر هذه الطاقة يمنح قدرات كامنة يمكن إذا ما توفر لها أقدار من الحرية والوعي ورفع عن رأس إنسانها الحصار و القمع والاستبداد السياسي و ما يورثه من القلق النفسي، أن تتحول من نقمة استدعت (الآخر) للسيطرة والتحكم والاستحواذ، إلى نعمة تفيض الخير على نفسها وتساهم بارتقاء حضارة العالم.

ومن الإمكان الحضاري الذي يندرج في هذا المساق أيضا، توسط الموقع الجغرافي لبلاد المسلمين، وامتلاك الممرات الدولية، ومواقع التواصل بين الثقافات والحضارات، والمخزون التراثي الذي يشكل ذاكرة الأمة ويمنحها القدرة على العطاء والحوار والتبادل الثقافي والمعرفي.

– الرصيد الكبير من الأدمغة والسواعد الإسلامية في الحضارة المعاصرة:

ومن الإمكان الحضاري الذي يشكل نوافذ أمينة على الحضارة الغالبة اليوم وطلائع متقدمة لأمة الإسلام، ومخزون جاهز يمكن الإفادة منه في إطار (الآخر)، ذلك الرصيد الضخم من السواعد – العمال الفنيين الذي يساهمون

بتحريك عجلة الحضـــارة – ومن الأدمغة التي تتوفر على الاختصـــاصات العلمية في شعب المعرفة جميعا، والذين يساهمون برسم مسارات الحضارة و إدارتها، ويشكلون حيزا كبيرا من البناء الحضاري لحضارة (الآخر).. إنهم يعيشون في جوف الحضارة، ويصبون خبراتهم وطاقاتهم في مجراها، ويتمتعون بخبرات ورؤى تؤهلهم للامتداد بالحضـــارة إلى الوجهة الصالحة، كما تؤهلهم للوراثة الحضارية، لأنهم أكثر إدراكا لأزمات الحضارة المعاصرة وأمراضها.

وقد لا يتسع المجال هنا لبحث أسباب هجرة الأدمغة والسواعد من أمتها وبلادها، وطردها من هنا واجتذابها من هناك، وكيف أن ذراع الحضارة الغالبة اليوم هو الذي يمتد لكل المواقع الجغرافية لاقتناص الخبرات والخيرات، وإغرائها بالحرية والمردود المالي، ويوفر لها المناخ العلمي، في الوقت الذي يساند مؤسسات الاستبداد السياسي وأنظمة القمع التي تتناقض مع قيمه الحضارية بحسب الظاهر، فتهاجر هذه الطاقات، لتشكل دماء جديدة ومتجددة في شرايين الحضارة الغربية، تضمن لها السطوة والديمومة والاستمرار واحتواء حركة الحضارة والإحاطة بمواقعها.

فاليد التي تؤمن عوامل الجذب من هناك هي نفس اليد التي تؤسس لعوامل ومناخات الطرد من هنا، حتى تجاوز أمر الهجرات اليوم السواعد والأدمغة إلى هجرة الأجنة، حيث الكثير من النساء تحاول الهجرة والولادة في بلاد الحضارة الغالبة لتضمن لجنينها الجنسية والمستقبل الواعد، حسب الظاهر، بعيدا عن مناخات التسلط والاستبداد السياسي، علما بأن هذه الهجرات تشكل أكبر قدر من الاستنزاف الذي يفوق استنزاف الخامات واستعمار الأرض وتكريس التخلف والتبعية والتأسيس لتقسيم العالم إلى تابع ومتبوع، ذلك أن استنزاف

الخبرات التي وصلت إلى مرحلة العطاء بعد أن صرفت عليها بلدانها الأموال الطائلة حتى وصلت إلى ما وصلت إليه، يمكن أن يكون أكبر مشكلة حضارية تعاني منها الأمة، لكن هذا لا يمنع من التفكير بكيفية التعامل معها والإفادة منها في مواقعها الحضارية، بعد أن أصبح العالم قرية واحدة أو كاد.

إن هذا الرصيد الكبير من الأدمغة والسواعد والأقليات المستقرة في بلاد حضارة (الآخر) يمكن أن يتحول إلى حل بدل أن يكون مشكلة ويشكل أزمة، لأن هذا الرصيد يشكل خبرات جاهزة ومستمرة ويعتلي منابر مؤثرة وله نصيب وافر ومساحة كبيرة من الحركة الحضارية وإمكانية توجيهها، إضافة إلى تلك الأقليات المسلمة – وهي جزء من الأمة المسلمة، والأمة غير الدولة – التي لو فكرت بدورها ورسالتها في تلك المجتمعات واستطاعت أن تقوم بعملية الاندماج والتأبي عن الذوبان، أمكنها أن تشكل مناخات و قابليات وممرات هائلة لدور الأمة المسلمة وعطاء الحضارة الإسلامية.

لكن إذا بقي الأمر على حاله، وبقيت هذه الجاليات جزرا معزولة عن محيطها، يتعاورها الخطباء والمتحمسون الذين يرتحلون إليها يشحنون عواطفها ويلهبون مشاعرها ويعجزون عن التبصير بدورها ومعالجة مشكلاتها في مجتمعها، فسنبقى نراوح في أماكننا، ونكرس تخلفنا ونزداد تراجعا.

ذلك أن هذه الأدمغة وتلك السواعد والمواقع التي تساهم بجغرافية الحضارة الغربية وديموغرافيتها، لا بد لها من المساهمة بدورها الثقافي الفاعل الذي يتيح قدرا أكبر وممرات معبدة لدور الأمة المسلمة في عالم الغد. ويبقى هذا المجال معطلا عن العطاء كسائر مجالات الإمكان الحضاري طالما نحن متخاذلون عاجزون غير راشدين في إدراك كنوزنا التي تملأ جيوبنا وتنتظر أن تستيقظ عقولنا وتستعاد

فعاليتنا.

– الاعتراف بالآخر:

ولعل من الإمكان الحضاري الملفت، ما أكدته القيم الإسلامية أو معرفة الوحي في الكتاب والسنة وتضمنته التجربة الحضارية الإسلامية التاريخية، من الاعتراف (بالآخر)، وعدم إقصائه أو إلغائه – ليس على مستوى الفكر وإنما على مستوى الفعل أيضا – واستمرار الحوار معه، ودعوته إلى الحق، وأكدت على طريقة وأسلوب الحوار والمجادلة بالتي هي أحسن، والتعامل معه بدون شروط مسبقة ومسلمات مبهمة، بل البدء برحلة مشتركة في التعاون والبحث عن الحق من مواقع واحدة متساوية، والاستناد إلى أهمية معرفة (الآخر) قبل حواره.

ويمكن أن يكون قوله تعالى: ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ ﴾ (آل عمران:64) أبلغ مدى يمكن أن ينطلق فيه ويصل إليه الحوار، إضافة إلى الاعتراف ببعض الفضائل التي عليها (الآخر) واستصحابها.

– معرفة (الآخر):

والحديث عن الدور الحضاري للأمة المسلمة في عالم الغد، كما يقتضي البحث في الإمكانات المتاحة للأمة، لا بد أن يقتضي أيضا الحديث عن الظروف المحيطة أو عما يسمى (بالآخر)، سواء كان غالبا مسيطرا بثقافته وحضارته أو كان شريكا، لأنه بشكل أو بآخر أحد الأبعاد التي تتعامل معها الرسالة الحضارية للأمة، ذلك أن الدور الحضاري للأمة –كما أسلفنا– ذو بعدين: بعد يرتكز على (الذات) ومعرفة إمكانها بدقة، وبعد يتوجه إلى معرفة (الآخر)، وليس مجرد الاعتراف به؛ لأنه هو محل الدعوة أو المجال الحضاري لدور الأمة أو لرسالة الإسلام، لأنه إذا ما استجاب فسوف يصبح من

الأمة، وينسلك بنفس الدور.

وأي تفكير بدور حضاري للأمة في عالم اليوم أو عالم الغد لا بد أن يضع في اعتباره معرفة (الآخر) والإحاطة به: عقيدته، وثقافته، وفلسفته عن الحياة، وتاريخه، وواقعه، ومشكلاته، أو أزماته التي يعاني منها، وإدراك أسبابها، وعلى الأخص إذا كان يقود الحضارة الغالبة التي نعيش ثمراتها وتنعكس علينا آثارها وأزماتها وأمراضها بشكل أو بآخر.

هذه المعرفة بشكل عام هي السبيل الصحيح للتعامل مع (الآخر)، أخذا وعطاءً، تأثرا وتأثيرا. وإذا كانت جدوى ذلك أو تجليات ذلك غير واضحة تماما فيما مضى، فثورات الاتصالات والإعلام التي تمكن وتمهد للوصول إلى مرحلة العولمة ، تجعل ذلك واقعا ضمن إطار الضرورات الحضارية أو الفروض الحضارية. ولا نرى أنفسنا بحاجة إلى الدخول لغرفة الانتظار المكتظة لنزيدها رقما لا قيمة له في التربص وترقب سقوط حضارة (الآخر) لحسابنا أو لسواد أعيننا —كما يقال – حتى ولو لم نتوفر على أدنى شروط الوراثة الحضارية.

لدرجة يمكن أن نقول معها: إن المساحات التعبيرية التي تحدثت عن (الآخر) في معرفة الوحي، وتاريخه وعقيدته وتعامله ومناقشته والعواقب التي قد ينتهي إليها إذا لم يبحث عن الحق، تكاد تفوق المساحات التعبيرية التي تحدثت عن عقيدة التوحيد والعبادة والتكاليف الشرعية المطلوبة من المسلم أو توازيها.

هذا البعد من الاعتراف (بالآخر) وطلب الحوار معه من مواقع متساوية، والاعتراف بما يمتلك من الفضائل والإيجابيات، وعلى الأخص أن الإسلام ليس

دين جنس أو لون أو حكرا على أحد، يمنح آفاقا وإمكانات حضارية تؤهل الأمة – لو كانت في مستوى إسلامها وعصرها– للقيام بدور حضاري غائب أو مفقود على مستوى الذات و(الآخر).

وحسبنا أن نقول هنا: إن الحضارة الغربية أو حضارة الغالب، في أحد وجهيها، تعاني من إشكاليات كبيرة وتأزم إنساني مخيف وفوارق اجتماعية ومآس كبرى تهدد مستقبلها، إلى درجة أن هذه الأزمات والإشكاليات لم تعد تقتصر عليها وإنما أصبحت تلك العدوى أو الوباء الحضاري والاجتماعي تصيب العالم جميعه، بأقدار متفاوتة، ذلك أن المشكلات والأزمات أصبحت عالمية، وأصبحت همّ الجميع، فالعولمة العتيدة لن تقتصر على العطاء والاحتواء الحضاري والثقافي، وإنما على توريث وإشاعة المشكلات والأزمات أيضا.

ولا شك أن فهم (الآخر) لا يتأتى بدون تخصص في المجالات المتعددة لتُؤَدى الشهادة الحضارية على وجهها السليم، حيث لا ينفع مع الحضارة المكث والانتظار لسقوطها بسبب أمراضها، ولا حتى بالتأبي عن دخول غرفة الانتظار والاستعاضة عنها برجم الحضارة دون أن ندري أننا بهذا الرجم والرفض نصيب أنفسنا أيضا.

من ملامح الحضارة المعاصرة

وقد يكون من المفيد هنا تقديم بعض الملامح المساعدة على رؤية الحضارة الغالبة في حقيقتها، وبالتالي المساهمة بمنح أقدار أو آليات لكيفية التعامل معها، وتحديد الدور الممكن للأمة المسلمة.

– حضارة تكتشف أمراضها:

ولعل في مقدمة هذه الملامح التي تأذن باستمرار الحضارة، لغياب البديل، في المدى المنظور: إحساسها بأمراضها وفزعها منها. وليس الإحساس فقط، وإنما الإدراك لمستقبلها وخطورتها والتفكير المستمر في سبيل علاجها وكيفية معافاة الحضارة منها، إلى درجة يمكن القول معها: إن معرفتنا بالأمراض الحضارية اليوم، التي نكتب ونخطب فيها، ليست من كشفنا وبحثنا وتحليلاتنا، إنما هي قراءة في إحصاءات وكتابات ودراسات أصحاب الحضارة نفسها، فأهل الحضارة هم الذين يكتشفون أمراضها بأنفسهم، ونحن قد نمثل في ذلك رجع الصدى، إضافة إلى أن الحضارة المتسلطة والغالبة اليوم ليست مصابة بعمى الألوان والصلف المردي، وإنما تسعى لاكتشاف أمراضها ومداواة نفسها بنفسها، وهذا لا شك سوف يمد بعمرها وسطوتها.

كما أن الحضارة المعاصرة تجاهد حتى لا تصل إلى مرحلة الشيخوخة الحضارية، وألا تنطبق عليها نظرية الدورات الحضارية الخلدونية المعروفة، لأنها تحاول استيعاب واستدعاء الشباب الحضاري واحتواءه من كل العالم لتتقوى به على شفاء نفسها وضمان استمرارها.

فإذا كانت الحضارة تأفل في مكان لتظهر في آخر، وتهاجر من موقع وقع فيه الانحلال الحضاري أو الانقراض الحضاري لغلبة مرحلة الغريزة والاستهلاك إلى موقع مؤهل للوراثة الحضارية، بما يمكن أن يسمى بعملية التداول الحضاري أو سنة التداول الحضاري التي يؤكدها قوله تعالى: ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ ﴾ (آل عمران:140)، فإن الخطورة تكمن في أن الوجهة الكونية للحضارة المعاصرة، أو وجهة العولمة، تحاول أن تجعل التداول الحضاري و الهجرات الحضارية تتحرك على محورها وفي

فلكها وضمن مجالها وتحكمها.

وقد لا يكون مستهجنا أن نقول: إن الدورات الحضارية التي قال بها علماء الحضارة، لم تعد تتعاقب اليوم، وإنما تتجاور في إطار الحضارة نفسها، وفي الوقت نفسه، في محاولة لتحديد الخلل ومواجهته ولو بأدوية مستوردة من سواعد وأدمغة من رصيد الحضارات الأخرى.. وإذا كانت الحضارة تشرق من مكان وتغيب في آخر -كما أسلفنا- فإن الحضارة المعاصرة الغالبة اليوم تحاول السيطرة على المشرق والمغرب معا، لتكون الحركة الحضارية في إطارها، بل لعلها تحاول هضم الحضارات جميعا والتقوي بها، وصبغها بصبغتها الحضارية.

ونحن لا نقول هذا لنساهم بتشكيل ذهنية الاستحالة والسقوط في العجز والتوهين للفرد والأمة المسلمة، وإنما لننقذ الأمة من ذهنية السهولة التي تعيشها، لتبصر المناخ الذي تعيشه، وتعرف سبل التعامل معه، وتخرج نفسها من غرفة الانتظار، وتسعى في توفير شروط الوراثة الحضارية أو المساهمة الحضارية، على الأقل في المرحلة الأولى.

- الارتهان الحضاري:

والأمر الذي لا بد من الاعتراف به وتجاوز عقدة الفخر بالذات، أن الحضارة الغالبة حققت سبقا حضاريا وإنجازا في المجال المادي تصعب مجاراته ومجاوزته، إن لم يكن ذلك مستحيلا، لسطوتها وتحكمها وامتصاص الخبرات العالمية جميعها، وإنهاك وتوهين البدائل والمنافسين.

وأن هذا السبق الحضاري يورث لونا من الارتهان الثقافي للأمم الأخرى، بحيث لا يمكنها تجاهله أو إلغاؤه أو رفضه، ذلك أن الكثير من هذا السبق والإنجاز بدأ يغرق حياتها ويصبغ ثقافتها، لذلك فالأمم التي لا تمتلك ممانعة حضارية، ولا تمتلك

ما تعطي، وتنطوي على ثقافات هشة سريعة العطب، مهيأة للذوبان بسرعة في الأمم الأخرى، والدوران في فلك الحضارة ذات السبق.. فالرفض لها ورد الفعل يبقى نوعا من التأثر بشكل أو بآخر، وإن بات التأبي عنه يكاد أن يكون في خانة المستحيل اليوم. والمقارنة التي نمارسها اليوم هي نوع من التعامل مع سطح الحضارة دون النفوذ إلى كنهها وإبصار الدور الحضاري للتعامل معها.

رؤية في كيفية بناء دور الأمة الحضاري

فإذا كان السبق الحضاري، وخاصة في المجال المادي وما يحمل في طياته من أبعاد ثقافية يشكل لونا من الارتهان، فإن مجاراة الحضارة ومسابقتها في هذا المجال وردم فجوة التخلف يكاد يصبح من المستحيل، لمحاولة الحضارة الغالبة استيعاب جماع الحركة الحضارية والاجتماعية في جوفها، ولحالة العجز والتخاذل وانطفاء الفاعلية التي تعيشها الأمة المسلمة.

فما هو إذن الدور الحضاري للأمة في عالم الغد؟ وما مشروعها الحضاري للمستقبل؟

– تحديد الموقع الممكن من مسيرة الحضارة المعاصرة:

ابتداءً نرى – وفي ضوء مجموعة تلك التجليات الحضارية – أن الأمة المسلمة بما تمتلك من إمكان حضاري، سبقت الإشارة إليه، لا بد لها أن تحدد موقعها بدقة من مسيرة الحضارة المعاصرة، وتدرس الفراغ الكبير الذي تعاني منه تلك الحضارة، لتمتد فيه، وتقدم قيمها ورسالتها الإنقاذية لحركة الحضارة المادية، مستلهمة رسالات النبوة التي تحملها للعالمين، ذلك أن الأنبياء جميعا لم يسابقوا أقوامهم من الملأ والكبراء فيما هم فيه، ويتحدوهم بالإنجاز المادي، من

نحت البيوت وإقامة الأهرامات وكنز الأموال والاستغراق في الاستهلاك واللذائذ والتأله وتعبيد الناس، وإنما تقدموا لهم بالدور المفقود في حياتهم، والمطلوب لسعادتهم وإلحاق الرحمة بهم.

لقد أدركت النبوة تاريخيا المدخل الصحيح للتعامل مع الحضارات القائمة، بحيث أصبحت تشكل حاجة وعلاجا ومصيرا.

فالدور الحضاري للأمة يتطلب، بعد تحديد الموقع، تحديد المداخل الحضارية أيضا، ومنح الحضارة حاجتها المفقودة، والنفخ فيها بالروح المفقودة، لاسترداد إنسانية الإنسان، والتحول من الاهتمام بأشياء الإنسان – وهي مهمة بلا شك – إلى التوجه لترقية خصائص الإنسان وتحقيق سعادته، لأنه معيار الحضارة الحقيقي.

– التخصص في شعب المعرفة:

الوراثة الحضارية المأمولة لا تتأتى دون شروط ومقومات. وهذه الشروط الموضوعية لا يمكن تحصيلها وضبط نسبها وتحديد موقعها ودورها بدقة، وتقويم نتائجها، واكتشاف إصاباتها، وأسباب عدم بلوغها أهدافها بدون إدراك أهمية التخصص في شعب المعرفة المتعددة. وليس إدراك ذلك فقط، وإنما الانخراط فيه وممارسته واعتباره دينا من الدين، ووسيلة من وسائل إظهار الدين، وأن الفقه به من الفقه في الدين– بمدلوله الواسع– استجابة لقوله تعالى: ﴿ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾ (التوبة:122).

وعند توفر التخصصات وتحقيق الكفاية من المتخصصين في المجالات جميعا، يتحقق تقسيم العمل وإتقانه والإبداع فيه، وتتغير شبكة العلاقات

الاجتماعية، ويسقط شبح ووهم الرجل الملحمة الذي يفهم بكل شيء، ويعود الخطباء والمتحمسون إلى مواقعهم، ويبرز الفقهاء والخبراء ليأخذوا مواقعهم في الشهادة على العصر والقيادة للمجتمع، والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴾ (فاطر:14).

وهذه التخصصات المتنوعة التي تعتبر من فروض الكفاية على الأمة جميعا، تتحول مسؤوليتها لتصبح من الفروض العينية لمن يختارها، بحيث يدرك أنه إنما يحقق مقاصد الدين في الحياة، فينمو وينبغ ويتقن ويكتشف فيها، وهو مستشعر أنه يترقى بالثواب كلما ترقى بتخصصه، حتى لا تغلب عليه مناخات التخلف فيغادر تخصصه ويتحول إلى الوعظ الديني – بمفهومه الحسير – الذي قد لا يحسنه، أو لا يختلف فيه كثيرا عمّن يتلقى عنه، وبذلك يساهم بفصل الدين بل بعزله عن الحياة.. وهذا يقتضي إعادة النظر بفقه فروض الكفاية، وتصويب مفهومها، الذي تشبع بالكثير من عقلية التخلف والتقليد والتوارث الاجتماعي، حتى أُخرجت من ساحة الفقه والحياة، واقتصرت على مفهومها على حالات الوفاة وتشييع الجنائز.

ذلك أن إشاعة التخصص وتغيير شبكة العلاقات الاجتماعية سوف يقتضي تقسيم العمل، ويؤكد أهمية التكامل الحضاري ويؤدي إلى التحول إلى العمل المؤسسي الذي تتوافر له كل الاختصاصات المطلوبة، ويتخلص من الرجل المؤسسة أو الصورة المؤسسية التي تكون في خدمة الرجل، ليصبح الرجل في خدمة المؤسسة.

وما لم ندرك أهمية التخصص وما يؤدي إليه من تقسيم العمل أو إتقانه وإبداعه، فإن الدعوة إلى العمل المؤسسي تبقى محاولة لاستنبات البذور في الهواء.

وتبقى ملحوظة لا بد من ذكرها هنا، وهي: أن الفروض العينية، أو ما يجب أن

يعلم من الدين بالضرورة، تحمي المسلم المتخصص من الآثار السلبية المترتبة على الانقطاع للتخصص الدقيق، الذي تشكو منه ثقافة الحضارة المعاصرة.

– إعادة النظر في كيفية التعامل مع النص:

ومن الشروط المطلوبة لبناء الأهلية للوراثة الحضارية، إعادة النظر في كيفية التعامل مع النص، أو مع معرفة الوحي بشكل أعم، والتحول من الاقتصار على البحث والدراسة حول إثبات النص وتحقيقه وسنده – وقد بلغ ذلك شأوا لم يدع استزادة لمستزيد، وتلقته الأمة بالقبول، وشهد له العلم بالتوثيق، إلى درجة يكاد يكون الأمر محسوما – إلى التفكير بكيفية إعمال النص في الحياة وتنزيله على الواقع وتقويم مسيرته به، إضافة إلى أهمية فقه مواصفات الخطاب القرآني والبيان النبوي أثناء عملية التنزيل على الواقع، وإعمال النص في حياة الناس، لأن غياب هذا الفقه يوقع الدعاة والعاملين في تقديم الإسلام كوريث حضاري للكثير من الارتباك والتناقص والتباين والتعميم، ولا نقول غياب التمييز بين الألوان، فهناك –كما هو معروف – خطاب للدعوة له مواصفات خاصة، وخطاب للتعبئة والمعركة، وخطاب للنصر، وخطاب للانكسار والهزيمة، وخطاب على مستوى العقيدة، وخطاب على مستوى الدولة والعلاقات الاجتماعية، وآخر لكيفية الحوار والتعامل مع (الآخر).. وهكذا.

فإذا لم نتحقق بفقه مواصفات الخطاب وفهم محل تنزيله بدقة، فيمكن أن نقع بمضاعفات وإحباطات وإخفاقات تتيح المجال لحضارة وثقافة (الآخر)، لأن:

وضع الندى في موضع السيف بالعُلا

مضرٌ كوضع السيف في موضع الندا

– فقه الاستطاعة:

ويترتب على هذا الفقه لمواصفات الخطاب، أو يستلزم ما يمكن أن نصطلح عليه بفقه الاستطاعة، أو فقه المحل المراد تنزيل الخطاب عليه، لأن أبعاد التكليف إنما تتحدد بمدى الاستطاعة، وما كان خارجا عن الاستطاعة فهو خارج عن التكليف ابتداءً في هذه الحالة، فالله تعالى يقول: ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ ﴾ (البقرة:286)، ويقول: ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ ﴾ (التغابن:16)، فإذا لم تتوفر الاستطاعة لا يرد التكليف. وهذا لا يخل بمفهوم أن شريعة الله والتكاليف الشرعية بمجموعها واقعة ضمن طاقة الإنسان واستطاعته بشكل عام.

وعليه، فإن الاستطاعة هنا تعني تطبيق الأحكام الإسلامية التي تقع ضمن حدود استطاعة المكلف، ولو فاته تطبيق بعضها بسبب عدم استطاعته. وببذل الاستطاعة يترقى الإنسان في تطبيق الأحكام، فيصبح الصعب مستطاعا، والمستحيل صعبا، وهكذا. وحال الأفراد كحال المجتمعات في هذا.

لذلك يمكن القول: إن الإسلام يبدأ مع الناس ويتعامل معهم من الحال التي هم عليها والاستطاعات التي يملكونها، فإذا طبقوا من الأحكام ما يطيقون، أي ما يقع تحت استطاعتهم، فقد طبقوا الإسلام المكلفين به في هذه المرحلة، حيث لم يكلفوا بما لم يطيقوا.

لذلك فكل مجتمع يطبق الشريعة بحسب إمكاناته، ويتأهل بهذا التطبيق إلى الارتقاء إلى استكمال التطبيق وتوفير الاستطاعات، حيث لا يمكن القول والادعاء في ضوء ذلك الفقه، بأن المجتمع غير مؤهل لتطبيق الإسلام، وأنه بحاجة إلى تأهيل، فالتأهيل يتم بالإسلام نفسه للارتقاء والاستكمال،

وليس بقوانين وشرائع أخرى، حيث يستحيل عقلا وواقعا أن يؤهل مجتمع بقوانين وقيم ومفاهيم لتطبيق قيم وشريعة ومفاهيم أخرى.

لذلك فإن من شروط الوراثة الحضارية، إلى جانب فقه مواصفات الخطاب، فقه المحل، أو فقه الحالة التي عليها الناس، أو الاستطاعة.

– إحياء سنة الحوار:

ومن الشروط المطلوب توفرها لتقوم الأمة بدورها المأمول وتهيأ للوراثة الحضارية وإلحاق الرحمة بالناس: إحياء سنة الحوار، بأبعاده وآدابه ومواصفات خطابه، ومتطلباته من معرفة (الآخر)، والتدرب عليه من خلال الخطاب القرآني نفسه، ذلك أن المساحة التعبيرية التي شغلها (الآخر) في القرآن تكاد –كما أسلفنا– تفوق المساحة التي تحدث عنها بالنسبة للعقيدة والعبادة والأخلاق في الإسلام، لأن هذه المرتكزات الإسلامية تأصلت وتحققت بالحوار نفسه.

وقد عرض القرآنُ (الآخر) بكل آرائه ومعتقداته وممارساته، ابتداءً من الحوار مع إبليس رأس الشر وانتهاءً بكل الأنواع المخالفة، ذلك أن الحوار هو أحد الأبواب العظيمة للدعوة، والسبيل لإيصال الحق من قنواته الطبيعية في الإقناع والبرهان وأدب التعامل. فالإنسان هو المخلوق المختار الذي لا ينفع معه الإكراه، وعلى الأخص أن التدين يعتبر أرقى مجالات الحرية والاختيار.

ونحب أن نوضح: أن الحوار مع (الآخر)، وإتاحة الفرصة لتبادل الرأي، للوصول إلى قناعات معينة، أو للوصول إلى صيغ مشتركة، للتفاهم والتعاون، هو مطلب إسلامي، وإحدى وسائل الدعوة والبلاغ المبين، شريطة أن يوفر للحوار

شروطه، من إتاحة الفرص المتكافئة، وتحرير موضوع الحوار، والالتزام بآدابه وأخلاقه، بل هو أكثر من مطلب إسلامي، أو أحد خيارات المسلم، إنه تكليف شرعي، يقع تحت مدلول قوله تعالى: ﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ ﴾ (النحل:125)، وقوله تعالى: ﴿ ۞ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ ﴾ (العنكبوت:46)، ذلك أن الدعوة إلى دين الله، وسبيله، محلها ابتداءً : (الآخر).

ولم يقتصر القرآن على الأمر بالمجادلة، وإنما نص على أسلوبها، واشترط أن تكون بالتي هي أحسن، وأن تكون بالحكمة والموعظة الحسنة.

ونحسب أن المبادرة بالحوار، والدعوة إليه، يجب أن تبدأ من عند المسلمين، وأن يكون المسلم أكثر حرصا عليها من (الآخر). ولعلنا نرى في قوله تعالى: ﴿ قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـٔٗا وَلَا يَتَّخِذَ بَعۡضُنَا بَعۡضًا أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُولُواْ ٱشۡهَدُواْ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ ﴾ (آل عمران: 64)، تكليفا شرعيا لا يخص عصرا بعينه، ولا حادثة بعينها، ولا يجوز أن يعتبر سبب النزول قيدا لخلود النص وتجرده عن قيود الزمان والمكان. فمقتضى خلود النص يعني: أن التكليف جار وقائم في كل زمان ومكان.

والدعوة إلى الحوار، واللقاء (بالآخر) ومحاججته بالتي هي أحسن، وظيفة المسلم، لإلحاق الرحمة بالناس. وما يمتلك المسلم من قيم سماوية معصومة منزلة من رب العالمين وتجربة تاريخية فذة، وشخصية حضارية وثقافية، تجعله في موقع مكين، يدفعه إلى الإيجابية، وطلب الحوار، ويجعل مكاسبه من الحوار مقدرة ابتداءً، ذلك أن (الآخر) سوف يتأثر على كل حال، وليس بالضرورة أن تظهر النتائج بشكل سريع، فكثير من الصحابة

رضوان الله عليهم سمع القرآن لأكثر من عشر سنوات، وكان الحوار بالقرآن، وكان المحاور الرسول ﷺ الذي أوتي جوامع الكلم، وجاء إيمانه متأخرا، ومع ذلك أبلى فى الإسلام بلاءً حسنا، وانتصر هذا الدين على يده، في معارك كثيرة، فكرية أو فقهية أو عسكرية، قال تعالى: ﴿ فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا ﴾ (الفرقان:52).

لذلك لا نرى عذرا ولا مصلحة في إقفال باب الحوار مع (الآخر)، أو نفيه أو إلغائه مهما كانت الأسباب. وقد يكون من الخطورة بمكان ترك المبادرة لغير المسلمين، لتنظيم ندوات الحوار وتحديد أهدافه وموضوعه، واستدعاء بعض الإسلاميين لملء المربعات المرسومة لهم مسبقا، بحيث تنتهي ندوات الحوار لتصب في مصلحة (الآخر) في نهاية المطاف، خاصة إذا كان الكثير من الإسلاميين المدعوين ممن استنبتوا على التربة الإسلامية، وغرسوا فيها لهدف، حيث جعلت مهمتهم توهين القيم الإسلامية، ومقاربتها بقيم الحضارة الغربية، التي تمثل (الآخر) في الحوار الدائر اليوم.

والأخطر من ذلك، فيما يسمى اليوم: «ندوات للحوار بين الإسلام والغرب»، أن يدعى للحوار والمشاركة وتمثيل الإسلام، أو الطرف الذي يحاور عن الإسلام، في هذه الندوات، بعض العلمانيين الذين يسكنون جغرافيا في العالم الإسلامي، لكنهم في الحقيقة مسكونون بالغرب، ثقافة، وحضارة، ومنهجا، ومرتهنون للغرب في كل شيء؛ لأنهم لا يمثلون الثقافة والحضارة الإسلامية، لقلة بضاعتهم فيها، من جانب، ولأنهم منحازون بطبيعة دراستهم وثقافتهم للغرب، من جانب آخر.

لذلك فالحوار معهم ليس حوارا مع (الآخر)، وإنما هو لون من النرجسية الثقافية، والتخاطب مع الذات، فالمؤسسات الغربية ومراكز البحوث والدراسات والجامعات،

عندما تدعوهم فهي لا تدعو (الآخر)، وإنما تدعو تلامذتها، وخريجيها، وحاملي ثقافتها، وتحاور بهم نفسها، وعلى ذلك فهي تزداد جهلا بالإسلام، والعالم الإسلامي، وتعجز عن فهمه من الداخل، وتأخذ صورة مشوهة، وتفسيرات بعيدة عن الحقيقة.

ولا نزال نذكر بهذه المناسبة، بعض ما نشر في أعقاب أحداث كبيرة ومنعطفات تاريخية مرت ببعض بلاد العالم الإسلامي، ولم يكن الغرب يتوقعها، أو يضعها في اعتباره، كيف أن العلمانيين المثقفين في العالم الإسلامي، كانوا وراء التضليل الذي وقع فيه الغرب، بسبب اجتهاداتهم وأفكارهم، وتحليلاتهم، لأنهم في الحقيقة لا يمثلون الأمة المسلمة، ولا يعبرون عن رأيها، وإنما هم يمثلون العمالة الثقافية للغرب.

لذلك فإن الاعتماد عليهم بالفهم والتفاهم مع العالم الإسلامي، أدى إلى سوء الفهم، واستمرار العجز عن إدراك حقيقة الإسلام، وحقيقة الصحوة الإسلامية، وأهدافها، ودوافعها وتكريس الصورة المغلوطة عن عالم المسلمين.

- إحياء المنهج السنني:

ومن الشروط المطلوبة لقيام الأمة بدورها في العطاء والتأهل للوراثة الحضارية: إحياء وتأصيل المنهج السنني كمبدأ قرآني، واعتبار السنن الجارية هي أساس لكل كشف واختراع وتسخير وارتقاء وتغيير ونهوض ومداخلة وتعامل، والتحول من انتظار حدوث السنن الخارقة للإنقاذ إلى التعامل والتفاعل مع السنن الجارية المرتبطة بعزمات البشر، والتيقن بأن الحياة لم تخلق عبثا ولا مصادفة، وإنما كل شيء خلقه الله بقدر. فلكل شيء في هذه الحياة سنة وقانون ينتظمه.. ومهمة الإنسان في الاستخلاف والعمران كشف هذه السنن وتسخيرها والارتكاز عليها في مسيرته الحضارية. وهذا الاعتقاد هو أساس

الإبداع والتقدم العلمي، وبدون هذا المنهج السنني تبقى محاولات النهوض كالضرب في الحديد البارد.

وقد عرض القرآن نماذج لهذه السنن المطردة كسنة الأجل، وسنن التدرج، وسنن التداول الحضاري، وسنن التغيير، وسنن السقوط والنهوض، وهذه السنن جميعها خاضعة لسنة تعتبر من الأهمية بمكان، هي سنة التدافع أو المدافعة: ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ ... ﴾ (البقرة:251).

ولولا هذا التدافع وإمكانية دفع سنة بسنة وقدر بقدر، لكانت الحياة عبارة عن قوالب حديدية تصب فيها حركة الإنسان كسائر المخلوقات المبرمجة غريزيا، بعيدا عن أية إرادة وقدرة.

وهذا المنهج السنني لن يتأتى أو يتأسس إلا بفقه النص والاهتداء به، والاستجابة له في السير بالأرض، والتعرف على سنن السقوط والنهوض. فالمؤمن ليس الذي يستسلم للقدر، وإنما المؤمن الحق هو الذي يدفع القدر بقدر أحب إلى الله، كما يقول ابن القيم رحمه الله.

– تأسيس الشورى وتأصيل مناهج النقد والتقويم:

ولا يمكن أن تتحقق الأمة بالدور المطلوب للوراثة الحضارية إذا لم تستشعر أهمية الشورى ولم تؤصل مناهج للنقد والتقويم والمراجعة والتمييز بين القيمة والذات والأفكار والأشخاص، فتعرف الرجال بالحق ولا تعرف الحق بالرجال، وتحويل هذا الشعار المعلق على المنابر والمحبوس في الكتب والمؤلفات إلى واقع معيش، والاهتداء بمنهج القرآن والسنة في التقويم، والسيرة ومرحلة خير القرون في التنفيذ.

ذلك أن المشكلة التي نعاني منها على أكثر من مستوى، ولأسباب لا مجال

لذكرها هنا، تضخيم الذات على حساب الفكرة، بحيث انقلبت الموازين تماما، فأصبح الرجال معيار الحق، وأصبحت الذات معيار القيم، وحلت محل العقل والفكر، والقوة معيار الحق والصواب، وسبيل الحل، إلى درجة أدت إلى استدراج الكثير من العاملين للإسلام إلى معارك وقتال بلا عدو، وترك السلاح الفاعل الذي يملكونه إلى التعامل مع السلاح المغلول الذي لا يملكونه، فعاد التصنيم وعادت الصنمية بصور أخرى، وأصبح الذي يملك الفكر والرأي لا يملك القرار، و لا علاقة له بصاحبه، والكثير ممن يملك القرار لا يملك الفكر والرأي، ويتحكم بالخلق بسبب قوته، وانفصل السلطان عن القرآن في كثير من تاريخنا الحضاري.

والأمل الباقي أن الأمة لا تزال منحازة إلى القرآن، الأمر الذي يمنحها قابلية النهوض، ويحتفظ لها بالإمكان الحضاري.

إن الدورات الحضارية الخلدونية وسنة التداول الحضاري نالت من الدول المسلمة المتعاقبة ولم تنل من الأمة، التي استطاعت الامتداد بالإسلام والاحتفاظ به وإقامة المؤسسات البديلة عن الدولة لتعيد النهوض والتجديد، ذلك أن الأمم والشعوب أقوى من الدول والحكومات، والقيم والمبادئ أبقى من السياسات، والنبوات والعقائد أقدر من الفلسفات.

– إطلاق حرية الاجتهاد الفكري:

ومن الشروط المطلوب توفرها حتى تستطيع الأمة أن تسترد دورها في الشهادة الحضارية على الناس وإلحاق الرحمة بالعالمين: إطلاق حرية الاجتهاد الفكري على أوسع مدى، واحترام التخصص والخبرة وتقديم أهل الخبرة (الحل والعقد) على أهل الثقة (المتحزبون)، حيث لا ثقة بمن لا خبرة ولا اختصاص له.

وهذا الاجتهاد وتحريك العقول، وتوسيع دائرة الرأي والتشاور والتفاكر والتثاقف، والحوار الداخلي، والحوار مع (الآخر)، هو الذي يحرك رواكد الأمة، ويطلق طاقاتها المعطلة، ويثير فاعليتها، ويشحذ همتها، ويذهب بغثائها، ويثبت صوابها، وينقلها من موقع التلقي والأخذ إلى موقع المساهمة والعطاء الحضاري العالمي، ويحول دون امتداد (الآخر) في المواقع التي تعاني من الفراغ الثقافي.

وسوف لا يتحقق ذلك إلى أن تتنادى الدولة والأمة في العالم الإسلامي إلى كلمة سواء فيما بينها، فتتحول بعض الدول من مواجهة الأمة إلى التكامل معها، بحيث تدرك أنه بمواجهتها للأمة وقيمها ومواريثها الثقافية إنما تكسر أسلحتها بأيديها وتزداد ارتهانا (للآخر) وعجزا عن أي عطاء أو مساهمة حضارية.

وهذه الحرية في الاجتهاد، هي استجابة وتحقيق لخصائص القرآن في الخلود والامتداد، ولازمة من لوازم بعث التجديد والتجدد واكتشاف الأمراض، الذي يعتبر دينا وتكليفا شرعيا.

– التحول من ذهنية التعبئة والحماس. إلى ذهنية الفقه والاختصاص:

ومن شروط النهوض وامتلاك القدرة التي تمكن الأمة من القيام بدورها الحضاري في عالم الغد، والإفادة من الإمكان الحضاري المركوز في أرضها ومواريثها الثقافية: التخلص من ذهنية التعبئة والحشد والحماس، والتحول إلى ذهنية الفقه والاختصاص. التحول من مرحلة التكديس إلى مرحلة الإنتاج، ومن مرحلة التحشيد إلى مرحلة بناء الوعي. ذلك أننا – فيما أرى– استغرقنا وقتا طويلا ولا نزال في عمليات التعبئة والحشد والغضب والحماس غير المدروس وغير المخطط له، أي دون إبصار المرحلة التالية التي تستوعب هذا الحماس وتلك التعبئة، ووضع

الأوعية الشرعية لحركة الأمة في ضوء الإمكانات المتاحة والظروف المحيطة، فأدى هذا إلى زراعة الألغام الاجتماعية في جسم الأمة، والانفجارات غير المدروسة أو المحسوبة، والتحرك أحيانا تحت رايات عُمِّيَّة من حزبية وطائفية، الأمر الذي أوقع بإحباطات كبيرة وإهدار لطاقات خيرة، كان العاملون للإسلام أول ضحايا هذه الانفجارات، وأصبحوا ألغاما ذات جاهزية تزرع هنا وهناك، وتصفى الكثير من الحسابات الإقليمية والدولية بتفجيرها في الوقت المناسب.

ونحن مع الأسف لا نعي الدرس ولا نفيد من العبرة أونحقق الوقاية الحضارية، ونستمر في التعبئة، فأكفأنا أعلانا صوتا وأكثرنا ضجيجا، ونظن أن الشديد بالصرعة، وكلما سقطنا في موقع فتش المتحمسون والخطباء على موقع آخر لم يسقط بعد، لنساهم سلبيا بإسقاطه (!) وبذلك نعيد مآسينا وتجاربنا، ونلدغ من الجحر مرات ومرات، ونفلسف الهزائم بأنها من قدر الله، ونعفي أنفسنا من التبعة والمسؤولية، ونلقي بتبعة الفشل على القدر.

– التخطيط لدور الأدمغة و السواعد المهاجرة:

ومن الشروط المطلوبة للنهوض وامتلاك الأمة القدرة على القيام بالدور الحضاري المأمول لإلحاق الرحمة بالعالمين، وتقديم عطاء حضاري متميز وغائب عن حضارة اليوم، التخطيط لدور ذلك الرصيد الضخم من السواعد والأدمغة، الذين يعيشون في جوف الحضارة المعاصرة –كما أسلفنا– ويشكلون ركائز أساسية في بنيتها، وكيف يمكن أن نحقق الوعي لهذا الرصيد برسالته الحضارية، وكيف نخطط لبناء مرجعيته الإسلامية ونحقق له الارتكاز

الحضاري، ونعينه على فهم دوره في إعطاء الحضارة المعاصرة طعمها المفقود، والمساهمة بقيادة مسيرتها من الداخل إلى خير الإنسانية.

وبتعبير أدق: كيف يمكن أن يشكل هذا الرصيد نماذج حضارية متميزة ومختلفة عن الأنموذج القائم، تبصر دورها، وتشكل طلائع العمل الحضاري الإسلامي لأمتها؟ كيف يمكن لهذه الأجنة الحضارية أن تنمو وتمثل وليدا حضاريا جديدا، يخرج من رحم الحضارة الغربية، خاصة وأن هذا الرصيد موجود في كل المواقع، وكل التخصصات، وكل المعامل والمخابر والمصانع، كما أن هذا الرصيد يمكن أن يكون هو الجسر الحضاري الذي تمر من خلاله القيم الحضارية الإسلامية لعقل وروح وساعد الحضارة المعاصرة.

ومن جهة أخرى، كيف يمكن للأمة الإسلامية أن تفيد من هذه الخبرات والطاقات النافعة في جامعاتها ومستشفياتها ومخابرها ومعاملها ومراكز دراساتها؟ كيف يمكن أن تستضيف هذه الطاقات لتشكل روافد علمية وتخصصية وخبرات عملية لنهوض الأمة المسلمة، ويشكل هذا الرصيد دليلها الحضاري للتعامل مع الحضارة المعاصرة؟

لكن وللأسف الشديد، فإن شيوع صور الاستبداد السياسي والقمع الأمني المنتشر في بعض بلاد العالم العربي والإسلامي كانت ولا تزال وراء طرد هذه الخبرات، والحيلولة المستمرة دون الإفادة منها، وتقديمها لقمة سائغة خالصة (للآخر)، فلا تنتفع منها في بلادها الأصلية، ولا تنتفع منها في داخل الحضارة المعاصرة.

وليست حال الأقليات المسلمة المنتشرة في العالم جميعه بأقل شأنا في عملية التغيير الحضاري العالمي وحمل رسالة الإسلام إلى العالم، لو تحقق لها الوعي

المطلوب بدورها واستشعرت مسؤولياتها عن إظهار دينها، وإنقاذ الحضارة من أزمتها، وأمراضها، بتقديم نماذج عمل عن البديل المأمول، تمارس الاندماج في حضارة العصر، وتتأبى عن الذوبان.

وإذا كان عمالنا أعمالنا -كما يقال - فليس حال الذين يتولون أمر ترشيد وتوعية هذا الرصيد بأحسن حالا منه، في كثير من الأحيان، حيث لا يقدمون لهم شيئا من أدله العمل ولا من كيفية التعامل مع الحضارة المعاصرة، وما هي رسالتهم فيها، وإنما يخطبون ويخطبون، وتمر السنوات وتتغير عناوين المؤتمرات والملتقيات - بصرف النظر عن أهمية وجدوى هذه الطروحات - والخطباء هم الخطباء المسافرون إليهم، مهما اختلفت الموضوعات المطروحة والظروف المحيطة والمشكلات القائمة والمعاناة الكبيرة.

والذي يتيح الفرصة الأفضل للمسلمين الذين يعيشون في داخل الحضارة المعاصرة، أن تلك الحضارة هي محصلة جهود بشرية متنوعة وليس من صناعة جنس بشري واحد، أو جغرافيا واحدة، إلى جانب حرصها على الإفادة من جميع الخبرات والتراكمات السابقة، حتى أن القائمين عليها هم من عناصر شتى، ويشكل المسلمون فيها حيزا كبيرا في شتى المجالات الفنية والمعرفية، وهم رصيد جاهز لو أحسنا التعامل معه لأدى الدور الحضاري المتميزة في عالم الغد.

- القراءة الدقيقة لمركب الحضارة المعاصرة:

ولعل من الشروط الأساسية المطلوب توفرها للأمة المسلمة حتى تقوم بدورها في عالم اليوم والغد: قراءتها الدقيقة والمتخصصة لمركب الحضارة المعاصرة التي تتقدم بخطى حثيثة صوب العالمية، وتوطن نفسها لاستيعاب

جميع الخبرات والطاقات واحتوائها في مواقعها.. وهي تسعى اليوم للتحكم والسيطرة على أفق الحضارة، على فجرها ومغيبها معا، بحيث تجعل الدورات الحضارية الخلدونية دائرة جميعها على محورها، متجاورة في جوفها، وليست متعاقبة يخلف بعضها بعضا، فهي التي تحاول أن تسيطر على المنبع الحضاري والمصب في الوقت نفسه، وتجدد شبابها بالإفادة من خبرات العالم، وتكتشف أزماتها وأمراضها بنفسها، وتحاول أن تعالج نفسها بعيدا عن الصلف والعتو.

فهي الحضارة الغالبة المتحكمة، ذات السبق المادي، حيث طوت اليوم العصر الميكانيكي لتدخل حقبة العصر الإلكتروني بكل آفاقه وإمكاناته وأبعاده، لذلك نرى المنتج والمستهلك حيثما كانت هويته وجغرافيته يصب في مجراها، ويوظف لخدمتها، ويساهم بارتقائها المادي، فهي الحضارة ذات السبق والامتداد على المدى المنظور.

لذلك لا مندوحة للأمة المسلمة، حتى تستطيع أن تقوم بدورها وتبلغ رسالتها وتنقذ البشرية من أزمتها، من قراءة دقيقة لهذه الحضارة، ومن ثم تحديد الموقع الذي يمكن أن تحتله، والمدخل الذي يمكن أن تلج منه، والمفقود في الحضارة الذي يمكن أن توفره، ذلك أن منازلة الحضارة المعاصرة اليوم في جانبها المادي هو نوع من الانتحار، والمزيد من هدر الطاقات وضلال السعي، والعبث بالإمكان الحضاري الذي تمتلكه الأمة، وتكريس الذيلية والتخلف والنكوص عن حمل الأمانة.

فالأمة المسلمة بما تمتلك من الأمور المفقودة في الحضارة الغربية، ومن المعالجات الشافية لأمراض الإنسانية، ومن الرصيد العظيم والمتنوع للحضور الإسلامي في داخل الحضارة المعاصرة، فإنها في الموقع القادر على أن تكون دليلا حضاريا ينقذ الحضارة المعاصرة من أزمتها وأمراضها، ويوجهها صوب

تحقيق إنسانية الإنسان وإلحاق الرحمة به.

وتبقى العبرة بالعواقب والمآلات وليس بالنتائج القريبة والمنظورة، فالوراثة الحضارية لها شروطها التي لا بد من توفرها، من الصلاح والإصلاح، يقول تعالى: ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴾ (الأنبياء:105). ويقول: ﴿ وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُواْ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَاۖ ﴾ (الأعراف:137).

والانقراض الحضاري، له سننه وقوانينه، فالبقاء للأصلح في نهاية المطاف وليس للأقوى، وحتى لو قلنا البقاء للأقوى، فالأصلح هو الأقوى بكل المعايير وإن بدا لنا في ومضة سحر عيوننا غير ذلك، فلا يلبث أن يبطل السحر: ﴿...وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴾ (طه:69)،

والحضارة المعاصرة بمقدار ما تشكل لنا تحديا وأزمة بمقدار ما تمنحنا إمكانية لتوظيف تقنياتها لخدمة رسالتنا وإظهار ديننا الذي هو دين الإنسانية عامة، الذي يحمل الرحمة والخير للعالمين، تساهم الأمة بالفعل الحضاري الإنساني وبتوجيه عجلة الحضارة الوجهة السليمة.

فالوراثة الحضارية باتت لا تعني التعاقب أو التداول والنفي والإقصاء بعد هذه الثورة المعلوماتية الاتصالية والإلكترونية، بمقدار ما تعني القدرة على التحرك من داخل الحضارة لتغيير وجهتها، حيث لم تعد الحضارة حكرا على أحد وإنما هي مشترك إنساني وتراكم معرفي، والأصلح هو الأقدر على تحديد وجهتها، وإن تحكم فيها وعبث فيها بعض الجبابرة والمستكبرين إلى حين، ذلك أن هذا الاستكبار ذاته هو الذي يستدعي البديل الحضاري الذي يحتل غرفة القيادة الحضارية، ويسير بها وفق هدايات الوحي المعصوم لإلحاق

الرحمة بالعالمين، التي من أجلها جاء رسول الإسلام والإنسان، قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾ (الأنبياء:107).

وبعد؛

فهذه الإمكانات التي أتينا على ذكرها، والتي يمكن أن تصنف في إطار النعم، والطاقات المهيأة لتسخير الإنسان وتوظيفه لها، واغتنامها في بناء حضارة إنسانية راشدة، سوف تتحول إلى نقم إذا لم يتوفر الإنسان الراشد القادر على التعامل معها وحسن توظفيها واستثمارها وتعظيم دورها.

فهي في غياب الإنسان الراشد تصبح أشبه ما تكون بالأموال الوفيرة التي تملأ جيوب القاصرين والسفهاء فتكون وبالا عليهم أو وسيلة لاستغلالهم واستدعاء الأوصياء.. لذلك يبقى المطلوب دائما:

كيف نعد إنسان الحضارة، ونسترد فاعليته ورشده، قبل التفكير بأشيائه وإمكاناته الحضارية؟

والله ولي التوفيق.